رواية الحسناء

زنوبيا

تابع صفحة ٤٦

— انها الشهادة جديرة بالاعتبار التي يجاهر بها اليهود بلا وجل ولا حياء حباً بديانتهم الوطنية والي ارتاب داكان الرومان يعملون عمل اولئك القوم اذا وجدوا في محيط كمحيطهم كله ظلم واستبداد . ورغم ذلك ديانتهم ديانة الله غير منظور . فهم لا يعبدون ذا معتوهاً بالايدي . وهم لا يضحون لمقدمات بشرية . وليس لهم معابد ولا مذابح ولا تماثيل كما لنا . وهم يكرهوننا كرهاً شديداً ليس فقط لأننا نختلف عنهم ديانة ومذهباً بل لاننا قوم مستبدون . ما نظرت عمري اسرائيلياً يمشي في شوارع روما منهمكاً بتجارته الا ورأيت فيه علائم الآحقدين بالثأر الفتلة . فهم مع كليجولا يريدون الرومان ان تكون لهم رقبة واحدة فقط يزعمونها عن جسدهم بضربة سيف واحدة . ويزعمها يزعمون الرومان من الارض ويستتب للقوم الراحة والسلام . اما من تحرك اظن كلام اسحاق كله رقة لان مذهبك يقرب من مذهبه . وهو ربما لا يحقد على الرومان المسيحيين .

— لا . بالعكس . اليهود اعدائنا ونحن وهم يكرهوننا اكثر منكم . لأنهم يحسبوننا منهم وانفصلنا عنهم . يحسبوننا كمغتصبين او كمدعين . لاننا تركنا اعتقادهم القديم واتخذنا لنا اعتقاداً جديداً . ولكن لا تظن يا بولي هذا الي اذهب فضائل الشيخ اسحاق . كلا . بل ليت كل اولاد دينه يكونون مثله محبين الانسان لأنه انسان ليس الا

— ها ! اذاً انا غلطان . كنت اظنكم واياهم من اعتقاد واحد وشعور واحد وعنصر واحد . ولكن لا اظنك تجهل ان المسيحيين واليهود من نحونا . اذاً اعتقادنا بكم غلط فان الكتّاب قد كتبوا ان مذهبكم مضر ومفسد للرأي العام وكله خرافات واباطيل . فصدقنا ما كتبوا . ولكن خطر لي خاطر وهو ان اليهود لم يدعوا احداً امنا يتمذهب بمذهبهم مع ان جمهوراً كبيراً من العامة ومن الخاصة اعتنقوا المسيحية . ومن ضمنهم المرحوم الامبراطور فيليب . وكان يحق لي ان اعرف من هذا انه يوجد اختلاف بينكم وبينهم ولكن وقوع الاضطهاد عليكم وعليهم تكلي السواء جعلني لا افرق بينكم كثيراً

— اعتقد انه سيأتي يوم يفحص فيه مذهبنا ويقال اعتباراً كبيراً من الامم . ولماذا لا

اقول انه اتى ؟ اليس الامبراطورية الرومانية في حالة سلمية الآن · عليها ملك قوي كريم وضع شرائع عادلة فاوقف تيار تعصب الكهنة · واليوم يزين رجال الفضل والادب بلادنا وكثير منهم يطلبون معرفة الله والحق · وعدد كبير من نسخ كتبنا المقدسة مكتوبة باليونانية واللاتينية ترى في كل مكان لمن يطلبها فيجد فيها ما يطلب من مذهبنا وديانتنا · واني مؤكد ان احسن يوم لتمحيص المسيحية هو يومنا هذا · لا شيء في مذهبنا يرعب احداً الا الذين عقولهم جامدة وعيونهم لا تبصر · فتأكد ان مذهب تعدد الالهة لا يقف امام المسيحية يوماً واحداً الا وينهزم ويصبح لا شيء · انت نفسك لا تعتقد بخرافات هذه الديانة البسيطة التي لا عبر عنها · (سامحني تلك جرأتي) واني اعتقد بكل اخلاص بان لا شيء يغيرك انت وامثالك الرومان عن مذهبكم الذي هو كفر حقيقة الى ايمان بالله الواحد الا قراءتكم لاقواله في الكتب المقدسة وقراءتكم لسيرة حياته المكتوبة بقلم تلاميذه واتباعه · اراك غير مصدق لقولي · من عدة سنين كنت مثلك غير مؤمن · ولكن تراني مسيحياً الآن · كنت اباحث اناساً كثيرين اقوياء · واجادلهم اكثر منك

وانك لتتعجب لما تسمع اني اعرفك قبل الآن اذ كنت تذهب لخانوت بابيوس وتخطب في الناس · بالطبع تريد ان تعرف شيئاً عن حكايتي فاقول لك اني ابن احد كهنة هيكل جوبيتر كبير الالهة · واني رجل كالصخر في مذهبه لا يتقلقل · غير انه لم يكره المسيحية · وكنت مساعداً له في مهنته هذه في الهيكل · وجل ما كان يجبه فيَّ هو ايماني الصبياني البسيط واحترامي لديانة دبت فيه الفضائل · ومع الزمان صرت ابًا · اربعة اولاد ولد لي فجعلت بيتي جزءًا من جنة عدن كما كنت افتكر اما اسمهم = ولكن ما لي ولوصفها الان ؟ يكفي ان اقول عنها انها كانت رومانية ! وكانت اجمل اوقاتي مداعبتي لاولادي ومحادثتهم وتفهيمهم بعض اشياء علمية ووجودهم معي في الهيكل حيث اكون استعد لايام الخدم الدينية · فاسمع وقع اقدامهم السريعة على الدرجات الرخامية واصواتهم الفرحة ترددها جوانب الهيكل وعمدانه · · ايتها الايام ما كان احلاك وابهاك ! فبقدر حلاوتك كانت سرعة ذهابك واختفائك تحت طيات الزمان وتقلباته · ففي ستة من السنين = وبالحري من ستة فاسية = اختطف اولئك الاولاد الاربعة مرض سار · وما عدت ارام بعد ذلك اليوم المائل · فانفطر قلب زوجتي من ذلك المصاب وتولته الكآبة فبردته واطفأته ولكنها ما برحت ان لحقت باولادها · وبقيت انا وحيداً شريداً حزيناً في هذه الدنيا · لا رفيق حياة اتكل على رفقته ولا بنين انظر

اليهم فلسرٌ والحرب . ولكن لا ازيدك شرحاً لحالي . يكفي ان اقول اني لعنت الالهة بمرارة وحرقة لا توصفان وصحت غضباً : من انتم يا من تجلسون فوق . وتجلون مصائب الانسان و بؤسه ملاهيكم والعابكم ؟ انتم احقر من البشر اذاً . انا رجل . ومع ذلك انا انزلت باحقر عبيدي اي مصيبة صغيرة . فاين مراحمكم وشفقتكم التي تدعونها بطلاً ؟ انكم لقساة القلوب . نعم انتم قساة القلوب هكذا تكلمت كمجنون جنته غضبه وحزنه . ولا اعرف كم طال بي المقام على هذه الحالة . لأني لا اتذكر الا وقلت ولكني اتذكر اني ايقظت بل انتشلت من الموت بواسطة رجل مسيحي كان يدعى بنوب بيني وهذا الرجل كان شاهد عيان على مصائبي واحزاني . وبعاطفة كلها اخلاص وود شديدين جعل هذا الرجل يقدم لي احياجاتي ويخدمني و يوماً قال لي : يا بروبوس انى اعرف احزانك واعرف احياجاتك . وانى اشعر ان افكارك وحتى فاسفة ايك المحترم لا تأتي لك بالسلام والاطمئنان القديم تطلبه ان هذا ليس بالامر المستغرب . فما انتا الا بشر وما لكما الا قوة وحكمة البشر .. الذي تحتاجه هو معونة من العلى . انا الآن لا احادثك كثيراً ولكن اترك عندك هذا الكتاب الذي اطلب منك ان تقرأه

فقرأت ذلك الكتاب وراجعته مرات عديدة فاقتنعت بصحته فصرت مسيحياً من مجرد ذلك . و بنعمة المسيحية فيَّ زال عني الحزن والألم . والايام التي كانت مرة — ايام البكاء والنحيب اصبحت ايام سكون وسلام . فانا الآن رجل ولد جديداً . رجل ولد جديداً اي نعم) وحقيقة يا عزيزي كورنيوس لا اقدر ان اصف لك تأثير هذه القصة الصغيرة عليَّ وعلى من تكأكأوا على الرجل ليسمعوا ما يقول واخص منهم اولئك الجنود ذوي الطباع الخشنة فالدموع انهملت على وجوههم المكدودة من اشعة الشمس . وواحد منهم المدعو ماسر فال صارخاً : واين آلهة روما وقوتها !

قال بروبوس هذا الكلام وتركنا وذهب صامتاً نحو المدينة حيث كان الربان . اما انا فبقيت لأتم مفتكراً بالرجل المسيحي وكتابه

بعد خمسة ايام تظرنا شواطيء الربيقا وما زلنا نسير بالقرب منها حتى رأينا هيبو ثم آتيكا وقرطجنة على رأس اكمة واحدة بارزة في البحر ومن هنا ابتدأت الجلبة والضوضاء في السفينة اذ اغلب المسافرين سينزلون في ميناء آتيكا فيبتاعون بجميع ما لهم من البضائع والحوائج . وكانت الجند مرسلة للخدمة في الربيقا فنزلت مع من نزل الى البر ومنهم اسحاق الشيخ وبروبوس . فشرت بعون الاتراق عنها و بقائي وحدي مع ربان السفينة الذي

يمكني ان احادثه انسابة فقط او لاعرف شيئاً اجهله . ولكن الامل بامكان لقائهما في تدمر حيث تقصد ازال عني بعض الوحشة . اطلاق هذا التوهم استهزاء بي لاعتنامي بهذا المقدار باسرائيلي صالح ومسيحي محتقر ولكن سوف ترى اني سأصبح من الشاكرين لها لما عملا معي من المعروف . وقد قال لي اصحاقي قبل مغادرته السفينة الى الشاطئ :

« ايها الفيلسوف يزنوبيا ! اذا تركت يوماً من الايام ديانة آلهة روما فليكن ذلك لتدخل بجمع اولاد ابراهيم الذين ديانتهم ليست ابنة البارحة . فلا تتأثر بكلام ذلك البرطقي بروبوس . اذا اقدر ان احكي لك حكاية اكثر تأثيراً من حكايته

« لا تخف يا اسحاق الصادق فانا لم اغير من ديانة ابائي ولم احتقرها بعد لانها هي التي ربطت جميع الرومان برابطة متينة كل هذه الاجيال . فانا لست بالرجل السهل استمالته واخدعه . لا لك ولا لبروبوس . احتدعك انتم الآن لكي امل رؤياك في تدمر

ثم مرّ علي بروبوس وقال : اذا لم اقدر ان اراك في عاصمة الشرق اوجو ان اراك في روما . فيبقى لي طريق ليفيان وليس بعيداً من هيكل الالهة الكبير . ويمكن ان تراني في مكتب العلامة بالبوس صباح كل يوم

فأكدت له باني اعمل جهدي لاراه لما ارجع لروما حتى ولو كثرت اشغالي ورجوت ان اراه في تدمر اولاً

هكذا افترقنا وحالاً بعد نزول البضائع والمسافرين للبر اقلعنا بدون ان تمر بي قرطجنة وتاسفت جداً لعدم تمكني من زيارة تلك المدينة المشهورة ولكن هبت علينا ريح شمالية ارجعتنا قليلاً نحو الجنوب فقدرت ان انظر لعاصمة افريقيا نظرة اكتفيت بها وقنعت . وقد اخذني العجب من دلائل عظمتها وازدياد سكانها وتخامتها بعد ما اعادها اغسطس بناءها . وكنت ارى ابنيتها الشاهقة وقلاعها واسوارها العالية وقصورها واحدثها المدينة من بين ضباب سماء افريقيا المحرقة وانا بمل ظهر السفينة

وما كنت اصدق عيني اني انظر لمدينة خاضعة لروما العظيمة . وبعد مدة غاصت المدينة واختفت تحت الافق كما تغاص واختفي بعد لما يوماً مضى ...

وبعد تركنا شواطئ افريقيا وصلنا جزيرة سيسيليا فسرنا محاذين لشاطئها فرأينا بركان اتنا يقذف حمماً ودخاناً سود وجه السماء . ثم سرنا نحو كريت فقبرص حيث رأينا في الاخيرة عظمة الطبيعة وبهجة المدن العامرة وجمال مناظر الجبال الشاهقة والاودية العميقة . وهبت ريح خفيفة اخذت تقوى شيئاً فشيئاً وهي تقذفنا امامها في طريقنا حتى

كانت لنا شواطئ سوريا وكانت اجمل وابهى ما نظرنا . فرأينا جبالاً شاهقة خضراء واودية تجري في بطونها الانهار . مناظر التقت نفوسنا بعد التعب الشديد . وكانت ميناؤنا المقصودة بيروتوس (بيروت)

و بقدر ما كان النظر يمتد شمالاً وجنوباً كنا نرى بلدانا عامرة بالسكان تدل على ان البلاد في غنى ونجاح . والمدينة التي كنا نقترب منها كانت صغيرة ضيقة ومع ذلك كنا نرى المخازن والدكاكين والمراسي العديدة والمحلات العمومية منفرقة هنا وهناك تظللها اشجار النخل الطويلة وغيرها من الانواع المختلفة الاوراق . فمكثنا في هذه المدينة اربعة ايام اشترينا في خلالها العبيد والجمال والخيل وغيرها من لوازم السفر في الصحراء . وكان امامنا طريقان واحدة رأساً لتدمر وواحدة طويلة فأخذت في صباح اليوم الخامس الطويلة حباً برؤية مدينة هليوبوليس (بعلبك) وسافرنا فيها الى الوادي عبيد مع جملين وثلاثة خيول مع دليل عربي . هذه هي قافلتي الصغيرة غير اني حبا بالسلامة انضممنا الى قافلة اكبر من تجار و بائعين يقصدون مدينة الشرق كأنها مفرق الطرق . فكانت طريقنا في اودية لبانوس (لبنان) وكنا نسير في ارض قيه مزروعة باعتناء . زائد ما رأت اعيننا احسن منها حتى ولا في اودية بلادنا ايطاليا التي كلها زرع بالع

وعند وصولنا الى بعلبك المدينة القديمة علمت اننا لا نقف فيها كما كنت أظن حتى ولا نقترب منها اكثر من ميلين او ثلاثة . وهكذا خدعت في ر بتوس (بيروت) . وشق علي ان اقطع هذه المسافة لارى المدينة فاخيب ! ... ولكن خيبتي لم تكن تامة لاننا بتحولنا حول جبل ظهرت لنا مدينة هليوبوليس وضواحيها وكان حجاباً رفع عن اعيننا فرأينا جمال ذلك المكان . كانت المدينة على بعد ثلاثة اميال مما فقدرنا ان نبينها قليلاً فرأيت المباني المهمة منها وهي هيكل الشمس المرتفع فوق اسوار البلد ومبانيها . ولكن بغتة قد اختفى ذلك المنظر عنا اذ سرنا في عطفة من الطريق ودخلنا في بطن احدى الاودية العميقة في انتيليبانوس (لبنان الشرقي) الى ان بلغنا الصحراء طريقنا الى تدمر

هذه هي الاشياء التي كنا نراها في تلك البقعة مدة اربعة ايام . وفي اليوم الرابع بعد الظهر وصلنا ينبوع ماء حار فشربنا وسقينا حيواناتنا واذا بي اسمع بان المدينة العظيمة لجهة الشرق . فنظرت شرقاً فرأيت ارضاً خضراء محيطة بمدينة كبيرة وكأن القافلة تهوست لرأى المدينة فأسرعت المسير لتقطع المسافة وتصل تدمر بسرعة وقد ابصرنا الارض عامرة بالسكان قبل المدينة بمدة اميال وفيها طرق منظمة دلت على اننا نقترب من عاصمة كبيرة .

وقابلنا بطريقنا جموعاً كثيرة من الناس سائرة وواقفة مع فيله وجمال وحيوانات كثيرة . ورأينا عدداً كبيراً من منازل التصييف لسكان تدمر الاغنياء يذهبون اليها للراحة من العمل ومن حر الصيف . جمال باهر وعظمة متناهية ! ايطاليا نفسها لا تدانى هذه البلاد . والثياب الحريرية الجميلة التي كنا نرى الناس لابستها ولباس الفيلة التي كانوا يركبونها كلها زادت في بهجة البقعة وجمالها . فسحرت من هذه المناظر وصرت في دنيا غير هذه الدنيا . ثم انتبهت لاصوات قواد القافلة وهم يرتلون تلة و يصيحون : تدمر ! تدمر ! مدينة تدمر ! فأسرعت للامام لكي جوادي فرأيت منظراً ما رأيته عمري حتى ولا منظر روما يشبهه . منظراً جعلني اقف مبهوتاً مندهلاً . مدينة محاطة بتلال صغيرة متساوية تقريباً ارتفاع عمدة تكي طول السهل من الشمال الى الجنوب ! وكل هذا السهل مدينة واحدة ! تخيل لي انها اكبر من روما مع اني اعلم ان روما اكبر منها

ومرّ عليّ وقت حتى قدرت ان اعرف سرّ هذه المدينة الكبيرة . فهي قسمين (المدينة) الحقيقية والضواحي . ولكنهما تظهران كأنهما متصلتان . فيخش الناظر ويحتار . المدينة محاطة باشجار النخل الباسقة والضواحي كلها قصور رخامية لكني ما قدرت ان افصل بين الاثرين ليعدي عنهما . ارض خلتها ارض الالهة والقوم الاطهار ! لاني لم اصدق ان الانسان يسكنها . في وسط المدينة شيء واحد استلفت نظري وهو هيكل الشمس العظيم . رأيت اعمدته الالف الرخامية تصعد في الفضاء يخلب بجمال الالباب . نظرت في روما هيكل كبير الالهة ولكن بالنسبة لهذا الهيكل فهو لا يذكر . بل هو كلعبة زرت ميلان وفينس والاسكندرية وانطاكية وفيها كلها ما شاهدت شيئاً يقارب هذا الهيكل في الكبر والجمال والعظمة . وابصرت حوله اهراماً صغيرة ومسلات مسننة وقباباً واعمدة وقلاعاً لا توصف من كثرة عددها ومن تناهي جمالها . هذه البنايات واسوار المدينة كلها من الرخام الابيض او من نوع من الحجارة البيضاء . مدينة تفوق وصف الواصفين احييتان اسكنها واقضي باقي ايامي في ربوعها بسلام . وليس هذا اعتقادي انا فقط بالمدينة بل اعتقاد كل المسافرين معي . فانها اثرت فيهم ذات تاثيرها فيّ . ومن ضمنهم بعض سكانها فلم يقدروا الا ان يصيحوا باقتخار وعجب : ما تكون روما امام هذه المدينة ؟ الايام لا تدوم . لماذا لا تكون تدمر ما كانته روما — سيدة العالم ؟ من اقدر من زنوبيا في الحكم والسياسة ؟ بعد سنين قليلة تتغير الامور ومن يقدر ان يتكهن بماذا يأتي المستقبل ؟ البقية صفحة ١٣٧